يا بشرى هذا غلام

تأملات في حسن الظن بالله
واليقين والبشرى

شروق المحمادي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وألف ألف صلاة وسلام على السراج المنير، والقلب الثابت باليقين محمد بن عبدالله صلي اللهم عليه وسلم صلاة تترا وسلاما يتبع إلى يوم الدين، وبعد،

لقد كتبت هذه المقالات والتأملات على مدى سنوات ونشرتها سابقًا في قنوات اجتماعية متفرقة، ثم جمعتها في كتاب احد؛ والغاية منها أن تنمي في قلبك اليقين بالله وحسن الظن به والاستبشار خيرًا لتجعل لك قدمًا راسخة، وقلبًا ثابتًا أمام المدلهمات لا يتزعزع يقينه بربه مهما كانت الصوارف والظروف، ولتنظر بحسن اللطف وجميل النظر إلى علام الغيوب، فيكون قلبك أقوى تعلقًا بالله وقربًا منه، واسأل الله تعالى أن يعم بهذه المقالات الخير والنفع ويجعل فيها بركة القراءة والعمل لكل من يقرأها وينشرها.

شروق المحمادي

جدة،

٢١ ذو الحجة ١٤٤٧ هـ

عندما تؤمن حق الإيمان تدرك حقيقة جوهرية مفادها أن لا مفر لك من التفاؤل وحسن الظن بالله، فالخسائر مع التشاؤم وسوء الظن بالله أكبر في الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى {وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين}

الظن السوء بالله يشمل سوء الظن بأحكامه الشرعية والتقديرية والقدرية ما حكم به من أحكام وشرائع وما قدره علينا من ضيق وابتلاءات، وسوء الظن بالله في المستقبل والأرزاق.

هذه السوداوية يا صديقي نهايتها مؤسفة جدًا فبعد أن وصل إلى قمم الإيمان الشامخة، سوء ظنه بالله وبأحكامه وأقداره أرداه إلى أسفل الإيمان وأفقده حلاوته وأرداه في قاع العصيان.

ممنوع في الإيمان بالله أن تيأس! إذا كان كذلك فممنوع أيضًا كل الطرق المؤدية لليأس والقنوط: ممنوع عليك أن تتشاءم وتسيء الظن بالله.

ممنوع عليك أن تظن بأن الله يعذبك ويكرهك ممنوع!

أنت تؤمن والإيمان به يُلزمك إلزامًا واجبًا بحسن الظن به أن يغفر زلاتك ويرحمك ويحبك وأنه معك وسيفرجها عليك وينصرك ويفرح قلبك.

حسن الظن بالله والتفاؤل أساس الإيمان وأصلٌ في السلوك إلى الله تعالى.

وأرباح التفاؤل وحسن الظن بالله في الدنيا والآخرة أعظم مما يخيل إليك أنها مجرد مزاج طارئ! بل تصبر عليه، وتعود عقلك عليه

وتسأله سبحانه أن يرزقك ذلك فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني اسألك التوفيق لمحابك من الأعمال، وصدق التوكل عليك، وحسن الظن بك"

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم أيضا «اللهم اخسيء شيطاني» أي خيب وساوسه في صدري فلا أصدقها "واجعله مطرودًا عني، ممنوعًا عن تثبيطي عن الطاعة."

وتذكر دائمًا: خسائر التشاؤم وسوء الظن بالله أعظم في الدنيا والآخرة فليس لك غير حسن الظن بالله ولا نجد لك علاجًا غير تعويد ومجاهدة نفسك ومكابدتها وحملها على التفاؤل، وهذا شاق لكنه أحلى وأقرب إلى الله تعالى وأدعى للفرج

"استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله فإن ذلك أقرب إلى الفرج"

الوعدُ الحسن

وبعد أن اجتازوا البحر ناجين، ما هي ليست إلا سويعات حتى عبدوا العجل! فغضب موسى عليهم السلام:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا)!

ألم يعدكم الوعد الجميل والحسن: النصر في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة والمستقبل والزمان تنقلب دفته حتى تصير بين أيديكم!

"أَيْ: أَمَا وَعَدَكُمْ عَلَى لِسَانِي كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَحُسْنَ الْعَاقِبَةِ كَمَا شَاهَدْتُمْ مِنْ نُصْرَتِهُ إِيَّاكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ، وَإِظْهَارِكُمْ عَلَيْهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَيَادِيهِ عِنْدَكُمْ؟" - ابن كثير

{أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ} كان ضعف يقينهم بالله أفقدهم روح الانتظار والصبر على طول الوقت حتى الانتصار، فحادوا عن السبيل ولجأوا لأضعف الطرق وأخفها حملًا.

"(أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) أَيْ: فِي انْتِظَارِ مَا وَعَدَكُمُ اللَّهُ. وَنِسْيَانِ مَا سَلَفَ مِنْ نِعَمِهِ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ." - ابن كثير

والوعد الحسن: هو كل ما وعد الله أولياءه وعباده المنزلة في كتابه أو جاءت على لسان نبيه كالوعد بالنصر والرزق والتمكين في الأرض والحفظ والمعية والعاقبة المستقبلية.

مراتب اليقين بوعد الله:

المنافق: متردد وشكاك ومكذب لهذه الوعود، وهو مثل قول المنافقين في غزوة الأحزاب بعد أن سمعوا وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهُ أكبرُ أُعْطِيتُ مَفاتيحَ الشامِ...اللهُ أكبرُ، أُعْطِيتُ مفاتيحَ فارسٍ»

فقال المنافقون: "كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط"

فأنزل الله تعالى فيهم {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا} (الأحزاب، ١٢)

وأما سبب ترددهم وضعف يقينهم بوعود الله فهي نسيان النعمة السالفة، فنسى المنافقون نصر الله لنبيه في غزوة بدر، ونسى قوم موسى تنجيتهم من آل فرعون فعبدوا العجل.

"الله عودك الجميل فقس على ما مضى"

وسببه كذلك وهن الصبر وفقد روح الانتظار لأوقات طويلة حتى تحقق الوعد {أفطال عليكم العهد}

وقد مكث البلاء في آل يعقوب ثمانين سنة، ومكث نوح في البلاء ٩٥٠ عامًا، وبين إجابة الله دعاء موسى على فرعون {ربنا اطمس على أموالهم} أربعين سنة، وكل هؤلاء صبروا على طول الوقت والعهد وأما المنافق فلا يصبر فيضيع يقينه وينحرف إلى طرائق أقصر وأخف.

٢- الصدّيق: وهو أعلى من الصالح والشهيد درجةً، وذلك لعظم تصديقه بوعود الله وأحكامه، وهو الثاني درجةً بعد الأنبياء، وفي الدعاء "وصدّق قولي وفعلي بالتحقيق" فجزاء تصديق وعد الله أن الله يصدّق قوله وفعله وذلك بأن يحققه له كأن يجيب دعاءه وألفاظه فينظر لها وهي تمشي على الأرض بعد أن كانت كليمات على لسانه.

{وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون}

لا المال، ولا العشيرة جعلتهم أئمة!

بل اليقين بآيات الله، ومن آياته وعوده للمؤمنين، وصبرهم عليها حتى فتح الله عليهم فيها.

.....

{واعبد ربك حتى يأتيك اليقين} إشغال النفس بالعبادة والعلم والأعمال النافعة والصحبة حتى يأتيك ما تيقنت به من ربك

في كتابه أو على لسان رسوله، يقضي الانتظار جمالًا، ويقطع المسافة متعةً، فيصير الصبر صبرًا جميلًا

كالذي انتظر موعد طائرة فذاك قضاها بالانتظار والترقب فتضايق ولام الطيارين على تأخير المواعيد، وآخر اختار أن يقرأ من صحيفة أمامه حتى أتى موعدها فاستمتع وصعد.

الله تعالى وضع لنا سننًا إلهية من اتبعها؛ تحققت وعوده الربانية وجاءت بنتائجها وثمارها الطيبة في الحياتين.

والناس يفتنونك عن اتباعها، ويشككونك في تلك الوعود. هناك من يثبت ويصمد وهناك من يهتز ويتراجع.

يقول محمد الرازي عن فتنة الناس: "فنظرك اليهم فتنة ، ونظرهم اليك فتنة ، وكلامك معهم فتنة ، وكلامهم معك فتنة ، وجفاؤك لهم فتنة ، وجفاؤهم لك فتنة ، وكرامتهم لك وكرامتك لهم فتنة لك" (عجائب القرآن، ١٤٥ ص).

وأسرد لك قصصا تسليك في هذا الشأن، لتعرف عظمة الثبات في مواقف فتن الناس:

يحكي الشيخ ملا البوطي أن والده لما هاجر من كردستان إلى دمشق طلبًا للمعيشة، التقي برجل في الباص ثبطه

"فحذّر أبي من أن الحياة في دمشق ليست من السهولة كما قد يتصور ، وأن من لم يكن من ذوي المهارات الفكرية والتجارية وأصحاب الأموال الكثيرة ، هيهات أن يجد لنفسه مستقرا فيها . وقال له : ثم إنك لا تعلم اللغة العربية ، فمع من تتفاهم ؟ ومع من تتعاون في أمور معاشك ؟"

فثبت والده أمام هذه الفتنة فردّ عليه: اللّه لن يتخلى عني .. دمشق كبيرة ، والأعمال فيها كثيرة ، ولن أعدم عملاً يدرّ عليّ رزقاً"

والفتنة أحيانًا تأتي من أقرب الناس إليك لثنيك عما تنويه!

"قال لي أبي : وكانت أمك تسمع .. فهيج حديث الرجل مخاوفها . وأثار الندامة في نفسها ، فأقبلت إليّ ترجوني أن نعود .. وتحذرني من بؤس ينتظرنا قد لا نقوى على تحمله .

قلت لها : لقد أعطيتني العهد والميثاق أننا لن نرجع عن قرارنا مها عظمت المخاوف والأخطار .. على أننا لم نجد إلى الآن إلاّ العون والتوفيق .

ويبدو أن أبي كان يرى في حديث ذلك الرجل الذي فرض نفسه عليه معلماً وناصحاً ، أكبر ابتلاء، واجهه أثناء هجرته إلى دمشق ، فلقد ألب عليه أفكار زوجته وتحولت من الموافقة التامة له والتعاون الكلي معه إلى عنصر معارض ،

وراحت تلح عليه بالرجوع .. غير أنه كان يرى في ذلك ابتلاء ربانياً كشف عن مدى ثقة أبي برحمة الله وفضله ، تلك الثقة التي لاقيمة لها إن لم تخترق سائر المخاوف والتوقعات المحتملة .

ولا بدّ أنه ، رحمه الله ، قد شرح لزوجته هذه الحقيقة ، وأعادها بالذاكرة إلى الضمانة الإلهية العظمى لكل من ترك داره ووطنه مهاجراً في سبيل الله .. تلك الضمانة التي كان قد عثر عليها في قول الله عزّ وجل : {وَمَنْ يُهَاجِرْ في سَبِيل اللهِ يَجدْ في الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً وَسَعَةْ ، وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورا رَحيمًا}" (هذا والدي، ص.٣٥)

ويحكي المُناظر شمائل الندوي صاحب المناظرة المليونية التي انتصر فيها على الملحد اختر أجاويد أنه عند إعلان المناظرة اشتعلت مواقع التواصل الاجتماعي بالاعتراض عليه والاستخفاف به وكيف أنه صغير سن عمره ٢٧ سنة يواجه ملحدًا عمره ثمانون عامًا! فقال شمائل الندوي: وكنت أبكي من هذا الكلام ولكني علمت أنه اختبار الله لي هل أثبت وأناظر لينتصر الحق أم اهتز وأتراجع؟ (بودكاست: أسرار.. يحكيها لأول مرة، عن أشهر مناظرة في الالحاد!! | شمائل الندوي)

{وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ.}

هذه الآية جاءت في سياق وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالعودة فاتحًا إلى مكة {إن الذي فرض عليك القرآن لرآدك إلى معاد)، فناهه الله تعالى أن يفتنه الناس عن اتباع آياته وأن يثبت ولا يتصدع أمام ما يقولون، فلا يأبه لها ولا يبهأ بها.

فنظرك أَجْمِعْهُ كله على سنن الله وقوانينه في الهدى والاستقامة ووعود الله، ولا تلتف لأقدار الناس فتفتتن وتضعف عزيمتك.

سيقولون لك: لكن فلان فعل هذا المسكين وانظر ماذا حدث له! هل تريد أن تكون مثله؟ وانظر إلى فلان وفلانة، ويحكون لك من القصص ما لا نهاية له. قل لهم: كل قصة لها قدر ، وكل قدر له حكمة، وحكم الله كثيرة فالقصص كثيرة، ولعل قصتي مختلفة والحكمة فيها مختلفة، فلماذا لا تعتبروني إحدى تلك القصص؟!

...

يذكر علماء النفس أن من أقوى الطرق لإدارة الأفكار هي استخدام التوكيدات اللفظية، وهي جمل إنشائية تُقال عند مواقف معينة؛ وأقول فإن هذه الطريقة العلاجية قد استخدمها

الإسلام، وذلك بوضع أدعية وأذكار معينة تُقال عند حالات وجدانية وشعورية: كالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند الوسوسة، وقول: آمنت بالله ورسله عند الشك والارتياب، وغير ذلك.

وما يهمني هنا في مسألة اليقين أن مما وجدت أثره على نفسي أنه كلما انتابني شيء من سوء الظن أو التشاؤم، قلتُ: "كذبت نفسي -أو اسمك فلان- وصدق الله ورسوله وما زادني إلا إيمانًا وتسليمًا" ثم ما يلبث الشك إلا يقينًا، وسوء الظن حسنًا بالله.

«فمحلي حيث حبستني»

لا شيء عليه، لا هم، ولا حَمْل، ولا ثُقل، ولا خوف.

معذورٌ الذي اجتهد وبذل الأسباب ودعا ولما شارف على الوصول،

قال له الله: عُدْ.

أتُرى سفره ضاع؟ وكيف يضيع والذي حبسه هو الله لا مانع لما أعطى ولما معطي لما منع.

آيسٌ من الفرجِ، كئيبٌ حزين، لا يرى سحابة تنزل بالمطر، ولا أفق يلوح بالنصر...

جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ جَالِسٌ حَزِينٌ قَدْ خُضِّبَ بِالدِّمَاءِ، قَدْ ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: «فَعَلَ بِي هَؤُلَاءِ، وَفَعَلُوا».

وأخذ يشتكي ويشتكي ويقص معاناته على جبريل.

علم جبريل أن النصر والتمكين لهذا النبي الحزين ليس الآن؛ لأن جبريل بقوته لا يستطيع أن يفعل شيئًا ولا يغير قدرا ولا يقرّب بعيدًا، ولا يبعد قريبًا، ولا يؤخر قضاءً ولا يقدّمه عن موعده، فأحب مواساته وتسليته..

قَالَ: أَتُحِبُّ أَنْ أُرِيَكَ آيَةً؟ قَالَ: «نَعَمْ، أَرِنِي» فَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي، قَالَ: ادْعُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ، فَدَعَاهَا فَجَاءَتْ تَمْشِي، حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: قُلْ لَهَا فَلْتَرْجِعْ، فَقَالَ لَهَا، فَرَجَعَتْ حَتَّى عَادَتْ إِلَى مَكَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَسْبِي» [صححه الألباني].

وأنت في كآبتك وحزنك الغارق في بحار الدموع كذلك لا يُمكنك فعلُ شيء ولا تغيير قدر ولا قضاء ولا تأخير ولا تقديم مهما فعلت...

لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ كُسِرَتْ رَبَاعِيَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشُجَّ، فَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدَّمِ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟»

نعم، وحق له أن يسأل ماهذا القدر العجيب؟! أهكذا يُهان نبلاء القوم؟ ولماذا يفعلون هذا ولم أفعل شيئًا؟

فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ } [آل عمران: ١٢٨] " [حديث صحيح]

بعد بدر، نظر رسول الله ووجد أن المشركين لم يستأصلهم الله جميعا مع أنه ألح بالدعاء عليهم والانتقام منهم!

وفي الصحيح: دعا رسول الله بعد الركوع: اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَر، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِيِّ يُوسُفَ...اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا" فأنزل الله {ليس لك من الأمر شيء}. فترك اللعن والدعاء عليهم «لَمّا شُجَّ وجْهُهُ يَوْمَ أُحُدٍ قالَ لَهُ أصْحابُهُ: لَوْ دَعَوْتَ عَلَيْهِمْ، فَقالَ: إنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعّانًا، ولَكِنِّي بُعِثْتُ داعِيًا ورَحْمَةً، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإنَّهم لا يَعْلَمُونَ»

{لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ }

فقال له الله أن انتصارك عليهم له ألوان كثيرة: قد يعذب طائفة منهم مثل ابن خطل، وطائفة يتوبون مثل عكرمة بن أبي جهل وخالد بن الوليد.

ومعنى الآية: "لا تستبعد فلاحهم... لأن النبي تعجب من فلاحهم أو استبعده" - ابن عاشور

مازال سؤال ديستوفيسكي الفلسفي في ذهني إلى الآن وأظنني قرأته في "الإخوة كارمزوف" ولأعيد صياغته: أتساءل كيف لإنسان لذعته الحياة قسوة من الزمن، وأذاقته طعم المرارة الذي لا يوجد في مكان آخر، وآلمته حتى جعلته يبصق على كل ركن من أركانها، فَكَرِه الخلق وساءت نفسه ومقت كل زاوية من زوايا الدنيا {وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم} ضاقت عليهم الأرض بأنهم لم يعودوا ليجدوا فيها حلًا ولا سببًا للفرج ولم يعد فيها أمل البتة وأصبحوا يرون الدنيا بأنها ليست لهم وأنهم ليسوا من أهلها ويتمثلون بالقائل:

خَرَجنا مِنَ الدُنيا وَنَحنُ مِنَ اَهلِها

فَلَسنا مِنَ الأَمواتِ فيها وَلا الأَحيا

إِذا دَخَلَ السَجّانُ يَوماً لِحاجَةٍ

عَجِبنا وَقُلنا جاءَ هَذا مِنَ الدُنيا

وَنَفرَحُ بِالرُؤيا فَجُلُّ حَديثِنا

إِذا نَحنُ أَصبَحنا الحَديثُ عَنِ الرُؤيا

ولا أهم من أهل الآخرة فيتنعموا، فهذا ضيق الأرض والدنيا بهم، وضيق أنفسهم أشد.

ونعود إلى سؤال ديستويفسكي (لو جعلوني أترجم سطرا واحدا من الروسية لجعلته مجلدًا لما عندنا من إسهاب وحشو؛): كيف لما قاسى الحياة واسودّت في عينه أن إذا أفاض عليه الله بالفرج وانفتحت الدنيا عليه فرحًا أن يشعر بالفرح! كيف يشعر بالفرحة والابتسامة بعد أن صارت لذاته الكآبة واعتاد على الكآبة وغذيّ بالكآبة! آلان يقولون له افرح!!

ووجدت الإجابة مسطورة في القرآن الكريم فالله تعالى يقول:

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49) فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50)} (الروم ٤٦-٥٠)

والآيات بينها تناسب كبير في موضوعها: فالآية ٤٧ تتحدث عن نصر المؤمنين ولا بد من استئاسهم من النصر قبل وقوعه كما استيأس الناس من إنزال الغيث وهذا معنى لمبلسين: أي يائسين من نزوله كما ذكر معناه صاحب السراج.

الأرض إذا أجدبت وتصحّرت واصفرّت ويئس الناس وساءت أخلاقهم اكتأبوا ثم إذا هبّت رياح الغيث وشمّوا رياحها طاروا فرحًا وضحكوا وتحرّك الناس وخرجوا وسمعت صياح الأطفال ورأيت حركات الشوارع بالسيارات بعد أن كانوا رقودًا خامدين، هذا ولعلمك الغيث لم يهطل بعد! فكيف إذا هطل!

ويقول أيضا {والله الذي يرسل الرياح مبشّرات} الآية ٤٦ في نفس السياق! ويقول تعالى في موضع آخر {لهم البشرى في الحياة الدنيا} فبشرى المؤمن الرؤيا الصالحة قبل الفرج، كما أن بشرى وقوع الغيث الرياح! فالآيات بينها ترابط مدهش!

ورأيت الناس بعد هطول الغيث لعبوا وضحكوا وابتسموا ورأيتهم اجتمعوا على الموائد بعد أن تشتتوا وأحضروا الشاي والحطب! فالله تعالى كأني به يقول: انظر يا عبدي المؤمن فوالله كما أحييت الأرض غيثًا منهمرًا وملأت قلوب العباد فرحًا بعد يأس وكآبة؛ لأملان قلبك فرحًا بنصري لك فهذه الآثار تمحو تلك الآثار كما تمحو الحسنةُ السيئةَ وكما تندرس آثار الأقدمين بعمارة من بعدهم؛ فاصبر واستبشر وأيقن بالله فإن فرج الله قريب.

...

اللهُ المُحبُّ لأحبابه وأوليائه، قد يدعونه بدعوة فيعطيهم إياها في ساعتها، وقد يفكرون في شيء فقط تفكير دون دعاء ويعطيهم إياه!

وأحيانًا،

يدعونه فلا يعطيهم؛ لكن لأنه يحبهم فلا يخيبهم؛ ولا يوصدُ البابَ الحبيبُ الأولُ الآخرُ.. ولكن يمنحهم بدل الإجابة

العاجلة؛ بُشرى في المنامِ تسرّهم، أو كلمة طيبة من أخٍ وأختٍ لهم يتفاءلون بها فتكتبها الملائكة تأكيدًا لها وحفظًا، أو ربما آية يقرأونها من كتابه تبشرهم {ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنا}، أو حديث من نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم يبشرهم {مبشِّرًا}، وهذه البشرى بجميع أنواعها المؤمن يتعامل معها بالقبول، وغير المؤمن بالله والشاك والظان بالله ظن السوء يردُّ الهدية فيغلق رزقًا على نفسه. «جاء وفدُ بني تميمٍ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال لهم : (أبشِروا يا بنِي تميمٍ) قالوا : بشَّرْتَنا فأعطِنا فتغيَّر وجهُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجاء وفدُ أهلِ اليَمنِ فقال لهم : (أبشِروا يا أهلَ اليَمنِ إذ لَمْ يقبَلِ البُشرى بنو تميمٍ)» وهؤلاء رفضوا البشرى لأنهم استعجلوا (بشرتنا فأعطنا) الآن وفورًا! بينما البشرى هي لرزق مؤجل.

الله تعالى لا يخذل حبيبه السائل؛ كأني به والمحب فيه يطرق بابه، يقول الله له: أهلًا عبدي فلان! إني لأحبك ولا أخذلك، ولا أعطيك الآن، لكن أبشر!

{قالوا بشرناك بالحق}، {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق}

البشرى والرؤيا الصالحة حق؛ ولا يجوز تكذيب الحق ولا المماراة فيه ولا الاستهزاء به ؛ فحكمه يأخذ حكم كل حق آخر! كالجنة فإنها حق والنار حق.

ولا يؤاخذ الإنسان بالتعجب منه فلا بأس به أو أن يستبعد وقوعه وحصوله فهذا مقياس العقل ولا يمكن دفعه من هذه الناحية؛ فقد تعجبت سارة عليها السلام {قالت يا ويلتاه أءلد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخًا إن هذا لشيء عجيب}.

{قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون} قالها إبراهيم عليه السلام على وجه التعجب لا على وجه آخر حاشاه نبي الله؛ فهو المصدّق بالأخبار وعلم الغيب.

...

بشرى المؤمن ثلاث:

١- رؤيا صالحة {لهم البشرى في الحياة الدنيا} ٢- ثناء الناس عليه «ذلك عاجل بشرى المؤمن» ٣- الوحيين من القرآن الكريم {هدى وبشرى للمؤمنين} والسنة النبوية {فبشّر عباد}. فالرؤيا محدودة بالنوم، وثناء الناس محدودٌ بهم. أما القرآن الكريم فبشرى دائمة يومية لمن قرأه وتمسك به. يا أين يجد المواساة والعزاء من لا يقرأ القرآن! إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأه ليثبت به فؤاده من هم اعتراه أو

قلق داهم، فكيف بنا نحن؟ في ماذا نجد المواساة والعزاء لهمومنا إن لم يكن القرآن؟

القرآن مثل الصلاة السادسة. مهما حدث من مرض أو سفر لابد أن تقضي وردك منه.

ومن لم يكن له ورد لم يكن له وارد.

أي من لم يكن له ورد يومي يلزمه من القرآن والأذكار، لم يكن له وارد من رحمات الله وأرزاقه وكراماته، ولم يكن له فرقان يفرق له بين الحق والباطل، ولا بصيرة، ولا خطرات رحمانية مشرقة تبث في نفسه النور والقوة والامتلاء والعز والغنى.

دائمًا القرآن هو المثبّت في أوقات الشدائد، والصاحب في الحزن، وكانوا يلجأون له في أوقات القلق والخوف.

لابد من ورد تستمر عليه كل يوم، واجعل لك هدفًا جديدًا بأن تختمه كل شهر بمعدل جزء واحد كل يوم. لقوله صلى الله عليه وسلم «اختمه في شهر».

واجعل هذا عادتك، وكأنه صلاتك السادسة لا تفوتها مهما كان.

———

{لهم البشرى في الحياة الدنيا} هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له. وما البشارة؟ إلا دليل على وقوعها بإذن الله. وهي وعد الله الذي لا يُخلف.

ولكن تأخير تحقيقها للمؤمن قد يكون بسبب ذنوب فيستحثه تأخير وقوعها على التوبة والاستغفار أو قد يكون السبب في تقصير بالطاعات فيستحثه على التزود والمسارعة في الخيرات.

مهمة المؤمن

مهمة المؤمن ضبط قلبه على الطمأنينة، ومرابطة على ثغور القلب من وساوس الشيطان وتهويله وتحزينه، وخطرات النفس وأهوائها، وترك الاستماع إلى الجهلة وضعف تصديقهم والإيمان بما قالوا.

إن مهمتك أن ترابط وتصابر على حدود القلب بأن تنقل قلبك باستمرار من سوء الظن إلى حسن الظن، وإذا انتقل على حين غرة وغفلة منه إلى الخوف المفرط نقلته إلى الرجاء وإذا انتقل إلى الرجاء وطول الأمل نقلته إلى الخوف، وإذا مال إلى العجب والغرور نقلته كرها أو طوعا إلى التذلل لله،

وإذا مال القلب إلى الحزن على الفائت والخوف من الاستقبال نقلته إلى اللاخوف واللاحزن {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} وهذه الحالة هي حالة الآن والطمأنينة والأنس والانشراح والرضا والتوكل والتفويض والتسليم لله.

ومن الحزن إلى حال الفرح بالله أن تفرح بأن الله موجود وأن تفرح أنه اصطفاك عبدًا له وتفرح بأقداره الماضية لا مجرد الرضا بها، وتظن أنها الأفضل لك.

ويقول علماء النفس أن أصل القلق هو الخوف من القادم. وأصل الاكتئاب والندم هو الحزن على الفائت.

لهذا فان الخوف والحزن يجيئان مرادفان في القرآن {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون} فلا خوف عليهم لما يستقبلونه من أيام ولا حزن على ما استدبروه وفاتهم من أيام الدنيا.

فمن لم يخف من المستقبل ولم يحزن على ماضٍ، بقيت له اللحظة الحاضرة الآنية فعاش حدود يومه وساعته فسعد واطمئن وانشرح.

والبديل للحزن على الماضي هو تذكر نعم الله عليك في الماضي {وذكرهم بأيام الله} تذكر نعمته في الأرزاق {واذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم}،

وفي دفع الضر وكشفه بعد شدة بأسه { اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ}.

وتذكر أن المصيبة نعمة من الله وعطاء وهبة خصّها الرحمن أسرارها ومفاتيحها بيدك. فلكل أقدار أسرار

ومفاتيح تخصها، يعرفها من كانت بيده ويفوتها من لم تكن بيده. فالمصيبة أحد أبواب المعارف الغير مكتسبة بل عطايا فهمها وإدراكها من الله تبارك وتعالى. فإن فهمت عن الله أقداره فتلك نعمة، وفهمك الحسن من حسن الفطن، وحسن الفهم حكمة.

والبديل للخوف هو انتظار روح الفرج «انتظار الفرج عبادة» وحسن الظن بالله. وما عبد ربه من أيس من الفرج لأنه سوء ظن وجهل.

وعلى ما أخاف والتوكل أولي والتفويض وسطي والتسليم نهايتي؟ وعلى ما أحزن والصبر سلوتي والشكر عن مننه ونعمائه حياتي ودنيتي؟ حصل الرضا ولابد

فتعامل مع الماضي بالشكر وتذكر النعم، وترضى بأقدار الماضي بأنها أفضل ما اختاره الله لك

وتعامل مع المستقبل بانتظار روح الفرج، والتفويض والتوكل.

فمن جمعت له هذه في قلبه جمعت له أسباب الطمأنينة، وطريقة العبادة الفضلى عند أولياء الله هي الفرح بالله والسرور به والرضا عنه.

وتتكلّف التوكل والفرح والتواضع والإخلاص حتى

يعدو حالك الحقيقيّ.

وهذه باختصار هي مهمة المؤمن في هذه الحياة:

ضبط قلبه على حال الطمأنينة. والمرابطة على ثغور القلب. والتصبّر عليها.

———

تعليقنا على كتاب وصل إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما عكّ عليه فتحُ عكا وطال ما بها من حصار، ننقله عن ابن كثير، ولفظه:

"إنما أُتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرج إلا ربه ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الّذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان، فكل

هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، وإنما النصر من عند الله، ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنصر به واللطف منه، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا، فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق."

قلتُ: إن هذا الكتاب عزيز وكلماته تخط بماء الذهب فقد احتوى على أسباب الفرج من الشدائد، والنصر بعد الهزائم، ونسرد أسبابها في جملة:

استعجل الخيرات، تُعجّلُ لك الفتوحات:

فدع التواني عن الطاعات ودع الكسل وعجّل وسابق في ترك المعاصي وكل دقيق من آثام الظاهر والباطن {وذروا ظاهر الإثم وباطنه}، وعجّل في الخيرات والطاعات فإنها من أسباب استجابة الدعاء وتفريج الكربات، وتأمل واقرأ قوله تعالى عن قصة إبراهيم عليه السلام:

{قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ (68) قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (69) وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ (70)وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ (71) وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ (72) وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا

وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ}

فأخبرنا أن سبب إنجائه من النار، وإخساء مكر أعدائه به ونصره عليهم هو مسارعته في العبادات لهذا قال {وكانوا لنا عابدين} وقبلها ذكر الصلاة والزكاة من أعمال الجوارح، فما استطعت عليه من عبادات الجوارح وذكر اللسان فافعل.

{وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ (89) فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ}

والمسارعة في الخيرات هاهنا هي من أعمال القلب ولهذا ختم الآية بقوله {وكانوا لنا خاشعين}. فكلما بادر وسابق المؤمن والمؤمنة إلى خيرات الظاهر بالعبادات وأعمال الباطن من إخلاص ورضا وحسن ظن بالله تعالى ويقين وتقدّموا في مراتبها، وفاقوا في مراحلها؛ كان أدعى لإجابة الدعاء، والفتوحات الربانية.

وإن المسابقة في أعمال القلوب هي السبب الموصلُ إلى المسارعة في أعمال الجوارح "ما سبقكم أبو بكر بصلاة ولا صوم ولكن بشيء وقر في قلبه" وهو من كلام المزني رحمه

الله. ولهذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أسبق الناس في أعمال البر البرّانية، وأعمال الخير الظاهرة:

عن عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه- قال: أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن نتصدّق، فوافق ذلك مالا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكلّ ما عنده، فقال: يا أبا بكر: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبدا»

وكل سيئة من أعمال الجوارح مردّها سوء أعمال القلوب، ومرجع سوء أعمال القلوب هو غياب الشهود، من غفلة عن الله وعدم مراقبته.

والمسارعة في ترك المعاصي بترك ما يقدر عليه والخلاص منها توبة نصوحا وأما ما لا يقدر عليه فليتركها لربه وليشكها إليه، وليدعه تعالى بأن يذهبها عنه وليقل في دعائه: اللهم ارحمني بترك المعاصي ما أبقيتني أبدا، اللهم إني اسألك توبة نصوحا لا ذنب بعدها أبدًا، واجعلني ممن ترك ظاهر الإثم وباطنه، "وأَسْأَلُكَ إِنَابَةً لاَ رَجْعَةَ فِيهَا وَلاَ حَوْرَ, يَا مُصْلِحَ الصَّالِحِينَ, يَا هَادِيَ الضَّالِّينَ, وَيَا رَاحِمَ الْمُذْنِبِينَ."

وغيرها من دعاء فإن النجاة من الذنوب لا تتحقق إلا برحمته تعالى وتوفيقه.

وقال المفسرون في قوله تعالى {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} الآية جاءت في سياق النهي عن الربا فهي تحث على المسارعة في ترك الحرام جملةً وفي الطاعات عمومًا ولهذا ذكر معها المغفرة وإنما تحقق المغفرة بالاستغفار والتوبة، وما شاءه الله فوق ذلك.

وفي الفقه يُكره أو يحرم إيثار أحد على العبادات والصفوف الأولى في المسجد. فأن تؤثرهم في طعامك وشرابك نعم، أما أن تؤثر الخلق على وقت صلاة أو تقدّم أحدًا عليك في الصف الأول ووقت خصصته للذكر والقرآن، فلا. وفي الحديث الصحيح «التؤدة في كلّ شيء إلّا في عمل الآخرة».

والأسرع في استباق الخيرات هم الأسرع مرورًا على الصراط. وقال العلماء الصراط نوعان حسي في الآخرة، ومعنوي في الدنيا، فأسرعهم متابعة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في الدنيا هم أسرعهم مرورًا على الصراط، وأسرعهم تركًا للشهوات في الدنيا وهو الصراط المعنوي أسرعهم مرورًا ونجاة من كلاليب الجسر الممتد على جهنم،

اللهم إنا نسألك السلامة والعافية. وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنه «السّابق بالخيرات يدخل الجنّة بغير حساب»

وقوله في الكتاب: "ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به"

يعني أننا لو فعلنا ما أمرنا به الله تعالى من طاعات وتركنا ما نقدر عليه من ذنوب وجاهدنا قدر أرواحنا، لفعل لنا من النصر الكريم والفتح المبين ما لا نقدر عليه بجهدنا وأموالنا وأسبابنا وعلومنا وقوتنا. ولهذا ذكر الله في كتابه الاستطاعة وأرفقها مع الطاعة.

وإذا تركنا ما نقدر عليه من فرائض ونوافل رغم توفر الوقت والصحة لا لشيء سوى العجز والكسل كان هذا تأخير في ما وُعدنا به من نصر وفتح.

وكان يُقال لنا في الامتحانات (كل هذا من وقتكم!)

فكل تأخير في ترتيب القاعة والاستعداد للامتحان ما هو إلا نقص من وقتنا في نجاح الاختبار.

قوله "فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله" قبل أن نلتفت يمينًا وشمالًا فيما وقع لنا من مصاب فلننظر إلى ما قدمنا ولنعترف إلى ربنا من تقصير في حق طاعته ونستغفره من

كل سيئة لا ترضيه، فهذا أسلم للنظر، وأسلم للعقل من سوء الظن، وأسلم للسان من وقوع في أحد.

ثم قال "ولا يرج إلا ربه ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الّذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، وإنما النصر من عند الله" دع فيها كل ما يشغلك عن ربك من أسباب وإجراءات وأصلح الذي بينك وبينه وبقدر ذلك يتيسر لك ما أمّلته من نصر. وعن أبي سليمان الدارني أنه قال: "من اشتغل بنفسه شغل عن الناس، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس" فانشغل بربك ولا تنشغل بنفسك

والرسالة بليغة وهذا ما علّقناه عليه وفيه كفاية والله المستعان. ...

مادمت باقيًا في الحياة الدنيا لم تمت بعد فأبشر يقينًا بوعد الله لك بالحسنة، {للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة} والحسنة في الدنيا هي الرزق والمال والصحة والدين وغيرها.

وأما اذا قبضت روح المؤمن من قبل تحقيق الحسنة في الدنيا، فليبشر بأعظم منها نوالا وحسنا في الآخرة، ولهذا قال تعالى:

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30)}

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وكلتا الآيتين في سورة النحل. ...

الرضا مقامٌ من مقامات السالكين وعمل من أعمال القلب، يكتسبه العبد بمجاهدة نفسه وقلبه ولا يحتاج لشيء سوى أن تقول عندما تتضايق: الحمدلله، كل أمر ربي خير. ولا تعارض بين الرضا ومشاعر الضيق والحزن فإن سيد الراضين المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يتضايق ويحزن. وحد الرضا ألا تعترض على قضائه وقدر لا بلسان ولا يد كلطمٍ ونحوه. وهو عمل قلبي أيضًا بترك الاعتراض في الخَطَرةً والفكرة وذلك بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ثم القول: الحمدلله، كل أمر ربي خير. قَالَ لُقْمَانُ

لِابْنِهِ: " لَا يَنْزِلَنَّ بِكَ أَمْرٌ رَضِيتَهُ أَوْ كَرِهْتَهُ إِلَّا جَعَلْتَ فِي الضَّمِيرِ مِنْكَ أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ."

فإذا جاهد نفسه فهو في مقام الراضين، فإن صار له سجية مع الوقت والتعوّد وتربية النفس صار حالًا له فهو في حال الرضا والحال أعلى من المقام؛ لأن المقام كسبي والحالُ طبع.

ومن أعطاه الرضا بقضائه وأقداره فهو من أوليائه الصالحين، لأنه غاية الوصول وسدّة المأمول والمحبة الإلهية والاجتباء الرباني "قَالَ عَزَيْرٌ: إِلَهِي مَا جَعَلْتَ لِمَنِ اخْتَصَّيْتَهُ مَوَدَّتَكَ؟ قَالَ: أُرْضِيهِ بِالْيَسِيرِ وَأجرُهُ الْخَطَرَ الْعَظِيمَ" فالرضا سمت العارفين وسنحة الولاية «يَا هَذَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ إِذَا قُضِيَ لَهُمْ قَضَاءٌ لَمْ يَتَسَخَّطُوهُ»

وما من أحد رضي بما هو فيه إلا زاده الله عليه، فمن رضى بصحته زاده صحةً وشبابًا ومن سخط أورثه سقمًا وداءً، ومن رضي بالقليل من مال وعلم وحمد الله زاده علمًا وفضلًا وبركة ففي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله وسلم أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْتَلِي عَبْدَهُ فِيمَا أَعْطَاهُ، فَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهِ وَوَسَّعَهُ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ»

وقال الجُريّري: من رضي بدون قَدرِه... رفعه الله فوق غايته. أي أن من رضي بالدون من القدر أعطاه الله فوق ما يتمناه. وهذا مصداق قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: من رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط.

وجزاؤهم في الدنيا والآخرة الزيادة في كل خير وبر. وأما في الآخرة فهم أيسر الناس حسابًا سَمِعْتُ هَدَّابًا، يَقُولُ: قَالَ لِي بَعْضُ الْعُبَّادِ: «إِنْ أَنْتَ رَضِيتَ مَهْمَا أُعْطِيتَ خَفَّ الْحِسَابُ عَلَيْكَ فِيمَا أُوتِيتَ» وأسرعهم مروًا على الصراط عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ، قَالَ: وَجَدْتُ فِي زَبُورِ دَاوُدَ: «يَا دَاوُدُ هَلْ تَدْرِي مَنْ أَسْرَعُ النَّاسِ مَرًّا عَلَى الصِّرَاطِ؟ الَّذِينَ يَرْضَوْنَ بِحُكْمِي أَلْسِنَتُهُمْ رَطِبَةٌ مِنْ ذِكْرَى» وهم جلساء الرحمن قَالَ أَسَدُ بْنُ مُوسَى، بِإِسْنَادٍ رَفَعَهُ: جُلَسَاءُ الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْخَائِفُونَ الرَّاضُونَ الْمُتَوَاضِعُونَ الشَّاكِرُونَ الذَّاكِرُونَ "

وهي إكسير السعادة «سَمِعْتُ أَبَا مُعَاوِيَةَ الْأَسْوَدَ، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل: ٩٧] قَالَ: «الرِّضَا وَالْقَنَاعَةُ»

والرضا ثمرة لاثنتين من عمل بهما أتاه الله الرضا، ألا وهي خروج الدنيا من القلب وترك الشهوات:

قال الحكماء إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَسْتَقْبِلُونَ الْمَصَائِبَ بِالْبِشْرِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَفَتْ مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبُهُمْ»

سَمِعْتُ أَبَا سُلَيْمَانَ، يَقُولُ: «إِذَا سَلَا الْعَبْدُ عَنِ الشَّهَوَاتِ فَهُوَ رَاضٍ»

وما من أمر انصرف عنك إذ انصرف بأمر فلان وعلان بل بأمر الله تعالى: عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ،قَالَ: " إِنَّ الرَّجُلَ لَيُشْرِفُ عَلَى الْأَمْرِ مِنَ التِّجَارَةِ أَوِ الْإِمَارَةِ حَتَّى يرَى أَنَّهُ قَدْ قَدَرَ عَلَيْهِ ذَكَرَهُ اللَّهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ فَيَقُولُ لِلْمَلَكِ: اذْهَبْ فَاصْرِفْ عَنْ عَبْدِي هَذَا فَإِنِّي إِنْ أُيَسِّرْهُ لَهُ أُدْخِلْهُ جَهَنَّمَ، فَيَجِيءُ الْمَلَكُ، فَيَعُوقُهُ فَيُصْرَفُ عَنْهُ فَيَظَلُّ يَتَطَيَّرُ بِجِيرَانِهِ إِنَّهُ دَهَانِي فُلَانٌ سَبَقَنِي فُلَانٌ وَمَا صَرَفَهُ عَنْهُ إِلَّا اللَّهُ "

...

تسلية المحزون في كونه المغموم

إن كان كَبُرَ حزنك عليك، وضاقت الدنيا وكونها معك بك وشعرت بأنه لا أعظمَ من حزنك؛ بلى هناك حزنٌ عظيم في الآخرة للظالمين فتسلّى يا مظلوم ويا مغموم، فوالله مهما بلغت درجة حزنك في الدنيا فهي ليست بشيء إلى حزن الظالمين والكافرين، كيف لا وحزنك في الدنيا يعقبه سرور والكرب الذي أنت فيه معه النصر والعسر معه يسرين، فإنما

أنت في نعيم عظيم. ولكن الحزن العظيم والكرب الشديد لذلك المرء {الذي يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى} وأنت في الدنيا كربك معه فرج أليس كذلك؟ ولكنهم هناك {كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍ أُعيدوا فيها} فتأمل فإن هذا مما يهوّنها عليك.

ومن تسلية المحزون أن يعلم بأن أعظمهم حزنًا في الدنيا أعظمهم سرورًا في الآخرة إن صاحبه إيمان وعمل صالح.

ومن عجيب استنباطات إبراهيم بن يزيد التيمي أنه قال: "ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار؛ لأن أهل الجنة قالوا: {الحمدلله الذي أذهب عنا الحزن}. وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة؛ لأنهم قالوا { إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين}."

تصوّر يا رفيقي الآخرة ومشاهدها كثيرًا، تخيل يوم العرض والكل وجهه في ذل وحزن وأنت وجهك يشع نورًا وسرورًا، والكل غريق في عرقه وأنت سحابة عظيمة تظللك وتُسعدك فقل لي بالله ألست في غبطة بهذه الكرامة؟

وهناك إذا نظرتَ إلى كرب غيرك، علمت أنه هذا هو الكرب العظيم، وأن همومك في الدنيا كانت دلالا! {وإذا صُرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين}

فهون الذي عليك من الغم فإن مثوانا قليل، فاليوم حزن وهم وغدًا فرحٌ وغبطة.

وقال مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: رَأَيْتُ الْحَسَنَ فِي مَنَامِي مُشْرِقَ اللَّوْنِ شَدِيدَ بَيَاضِ الْوَجْهِ, تَبْرُقُ مَجَارِيَ دُمُوعِهِ مِنْ شِدَّةِ بَيَاضِهَا عَلَى سَائِرِ وَجْهِهِ, قَالَ: فَقُلْتُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ أَلَسْتَ عِنْدَنَا مِنَ الْمَوْتَى؟ قَالَ: بَلَى, قَالَ: قُلْتُ: فَمَاذَا صِرْتَ إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الآخِرَةِ, فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَالَ حَزَنُكَ وَبُكَاؤُكَ أَيَّامَ الدُّنْيَا, قَالَ: فَقَالَ مُبْتَسِمًا: رَفَعَ اللَّهُ لَنَا ذَلِكَ الْحَزَنَ وَالْبُكَاءَ, عَلِمَ الْهِدَايَةَ إِلَى طَرِيقِ مَنَازِلِ الأَبْرَارِ, فَحَلَّلَنَا بِثَوَابِهِ مَنَازِلَ الْمُتَّقِينَ, وَأَيْمُ اللهِ إِنَّ ذَلِكَ الأَمْرَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْنَا, قَالَ: فَقُلْتُ: فَمَاذَا تَأْمُرُنِي بِهِ يَا أَبَا سَعِيدٍ؟ قَالَ: مَا آمُرُكَ بِهِ: أَطْوَلُ النَّاسِ حَزَنًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ فَرَحًا فِي الآخِرَةِ.

يا محزون أنت مغبوط على نعمة الإيمان والهداية فعاقبتها الخير الكبير في الدنيا والآخرة، فإن حبست نفسك عن الشهوات والمتع على القرآن والسنة والقيام فأنت غدًا حُرٌّ وابن حر ابنُ حُرّة في راحة وحرية مطلقة ما سمت روحك وعَلَت

حَدَّثَنَا صَالِحُ بْنُ بَشِيرٍ الْمُرِّيُّ، قَالَ: لَمَّا مَاتَ عَطَاءٌ السَّلِيمِيُّ حَزِنْتُ عَلَيْهِ حُزْنًا شَدِيدًا, قَالَ: فَرَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي, فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَلَسْتَ فِي زُمْرَةِ الْمَوْتَى؟ قَالَ: بَلَى, قُلْتُ: فَمَاذَا صِرْتَ

إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: صِرْتُ وَاللَّهِ إِلَى خَيْرٍ كَثِيرٍ وَرَبٍّ غَفُورٍ شَكُورٍ, قَالَ: قُلْتُ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتَ طَوِيلَ الْحَزَنِ فِي دَارِ الدُّنْيَا, قَالَ: فَتَبَسَّمَ وَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ يَا أَبَا بِشْرٍ لَقَدْ أَعْقَبَنِي ذَلِكَ رَاحَةً طَوِيلَةً.

...

وبعد أن قاومت اليأس كثيرًا وتمسكت بالأمل كثيرًا، جاءتك وأنت تحت حرّ الشمس ولهيبها لحظة أيقنت فيها أنك مخدوع بالأمل، ومغشوش بالوهم، والحقيقة أن هذا الأمر قد فاتك، وذاك قد خسرته حقًا ولا يوجد أمل.

في تلك اللحظة اليقينية التي أيقنت بها صدقًا وصدّقت أن ما ذهب قد ذهب ولا يعود وما خسرته لا صلاح له، حينها تعلم أن هذه اللحظة مر بها الأنبياء -عليهم السلام- من قبلك بها وهي لحظة الاستئاس، اقرأ الآية وتمتّع وأنت تقرؤها:

{حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} ذكر في (السراج في بيان غريب القرآن) "ظنّوا أي أيقنوا" لا محالة أن أقوامهم قد كذبوهم وانعدمت آمالهم فيهم وخاب رجاءهم عن يقين وقنعوا منهم وولّوا ظهورهم لأقوامهم ولم يعد هناك فرق، ولّوا حزانى كئيبين، هذا الاستئاس هو يأس من الأسباب والخلق والناس والأشياء والنفس لكن بقي أملهم قويًا

بالله (ذكر الفرق بين الاستئاس واليأس هذا العلامة الشعراوي رحم الله روحه الطاهرة) وفوضوا أمرهم إلى الله وآووا إلى ركن شديد ولم ييأسوا من روح الله أي رحمته لكنهم استيأسوا من قومهم، هناك وعندها وفي تلك اللحظة جاءهم النصر والفتح.

والآية في سورة يوسف، فمن هو نبي الله الذي استيأس ولم ييأس؟ أظنه والله تعالى أعلم أنه نبي الله يعقوب عليه السلام؛ ذلك لأن يوسف عليه السلام يعلم بإخوته وآوى إليه أخاه بنيامين وهو أكثر فألًا ومعرفة بحال أبيه وإخوته ومجيئهم إليه، أما نبي الله يعقوب عليه السلام فليس عنده علم عن يوسف ولا إخوته هم يدرون أنه هو العزيز، فكان أشد استئاسًا من الأسباب وتخليًا عنها وأقوى تمسكًا بالله تعالى ويقينًا به فأمله في البشر صفرًا وحسن ظنه في الله ألفًا أو كما قال القائل "والظن في الله عالٍ أيّما عالي" ثم إن يعقوب كان أشد بكاءً على ابنه وأشد غمًا حتى أن الله سمّاه بالكظيم وهذه الكآبة الشديدة تقود للاستئاس من الأسباب والاستئناس برب الأرباب. وإذا قرأت هذه الآيات أدركت هذا المعنى أكثر وتجلى لك الفهم وانكشف {وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين. قال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا

تعلمون. يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون} روح الله هي رحمته. وانظر إلى ما بلغ به حزنه؟ أنه صار شديد الكتمان لهمّه حتى أنه ماعاد يشكو لأحد وهذا معنى {كظيم} قال صاحب السراج: "كظيم أي شديد الكتمان لحزنه" حتى قنع من الشكوى إليهم فصار يشكو لله حزنه وكآبته، ثم إنك تجد في أوقات الكآبة رغبةً بك عن البشر وحبًا في العزلة مع رب العالمين؛ لأنك استوحشت منهم وعلمت أنك لو اتكلت عليهم فإنما اتلكت على ضعيف، ولعمري إن خير ما يفعله المحزون بهمه أن يلجأ إلى ربه ويناجيه ويبثها إليه فإن يعقوب قدوة الحزانى والمتألمين.

ولما تكالبت الهموم والفتن والبلابل والخارجين على أبي جعفر المنصور وقلّ جنده، وقوي جند عدوه قال ابن كثير "ولزِمَ المنصورُ موضعَ مُصَلَّاه، فلا يبرَح منه ليلًا ونهارًا في ثيابٍ بذْلَةٍ قدِ اتَّسختْ؛ فلم يزَلْ مقيمًا هناك بضعًا وخمسين يومًا حتى فتح الله عليه وقد قيل له في غبون ذلك إنَّ نساءك قد خَبُثَتْ نفسُهن لغيبتِكَ عنهنّ. فانتهَرَ القائلَ وقال: وَيْحكَ! ليست هذه أيام نساء، حتى أرى رأسَ إبراهيمَ بين يدي، أو يُحمل رأسي إليه." وكان العلماء يوصون بقراءة القرآن عند القلق. والشدائد هي مواطن لملاقاة الله ذكرًا وعبادة لا فرارًا وضعفًا ويأسا من رحمته {يا أيها الذين آمنوا

إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون} وإذا لاقتك كتائب الحزن فاهزمها بكثرة الذكر، تولّي منك فرارًا وتُملؤ من إيمانك رُعبا.

وأوقات كثيرة النفس فيها تميل للاستكنان والسكون في مكان واحد لا تبرحه ولا تفارقه دون ملل ساعات وساعات دون لقاء مع البشر أو كلام معهم حتى يفرغ الذي هو فيها لرب البشر، ثم تنطلق إليهم خفيفة مرتاحة، وإنما ذلك الحبس ظاهر في زمانه ومكانه ولكنها حرية بمعناها الكبير وخفة في الروح لطيفة.

ماذا يبقى للإنسان في شدته؟

استمعت إلى قصة الطبيب السوري محمد حمزة وعجبت لما فيها من عبرة غيّرت طريقة تفكيري ونظرتي للأمور {فاقصص القصص لعلهم يتفكرون} فأحببت نقلها مع التعليق عليها:

حفظ د. محمد حمزة القرآن ثم أُدخل إلى سجون، وكانوا ممنوعين من الكلام، فيقول حفظّت وعلّمت السجناء القرآن بكتابة الصفحة بالصابون على الألبسة السوداء حتى تظهر

رغوة الصابون البيضاء بوضوح على السواد وليس على الألبسة الملونة، وأن الكاتب والسيناريست التلفزيوني عدنان الزراعي كان معه في الزنزانة وقد حفظ بهذه الطريقة ١٠ أجزاء من كتاب الله حتى استشهد.

ثم أخبر بأنه كان في آخر سنوات التعذيب قد أُنهكت أعصابه وشارف على الموت والمرض فصارت مراجعته للقرآن ذهنيًا من ذاكرته تأخذ وقتًا فالبقرة التي كانت تأخذ منه نصف ساعة صارت تأخذ منه أربع ساعات أو خمس وشعر بالضعف والوهن في ذاكرته ورغم هذا يقول بأنه كان مصرًا على تشغيل ذاكرته ومراجعة ورده حتى لو أخذ وقتًا وجهدًا.

وعندما وصل إلى قوله تعالى {وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} جاء إليه السجّان ونادى اسمه وبشّره بالفرج وخرج من السجن بعد ست سنين عجاف قضاها فيه.

العجيب أن هذا الطبيب الجراح كان يداوي المرضى ويعمل الجراحات وأيضا هو معلم للقرآن ويحفظه.

لا أدري ماذا أقول وأنا أسمع قصته! غير أني فهمت مغزى من مغزى الحياة والوجود أثناءها وهو أن الإنسان إذا انقطع عنه كل شيء وحاصره الزمان وحورب من كل مكان، مُنع

فيها طعامه وشرابه وكلامه وناسه ماذا يبقى معه!؟ لا شيء سوى الأحزان والذاكرة شغّالة بتذكر الآلام إلا الحافظ للقرآن فإنه ولمراجعته ورده من القرآن عن ظهر قلب يزاحم بكلمات القرآن كلمات البُغض والشتم والسب الذي يعترضه فلا يتألم ولا يبالي كثيرًا بما يُوجّه له، ولهذا ينسى الذكريات الموجعة بسهولة ويستغرق تفكيره وذهنه في تذاكر القرآن، والذاكرة إن لم تجهدها بالحفظ والمراجعة، أجهدتك بحفظ الأحزان والمخاوف.

ومن هنا فقد عرفت جذر المشكلة المعاصرة (التفكير الزائد)، لأنها ذاكرة فارغة من مراجعة الورد القرآني فانشغلت بتذكر الماضي والمستقبل والاجترار، بل واطلعت على قصص لكثيرين بعدما حفظوا القرآن وتعاهدوه مراجعةً وترتيلًا ذكروا حقيقة مدهشة: اختفت الوساوس والأفكار والمشاعر السلبية تمامًا!

حينها عرفت ما الذي يبقى للإنسان في شدته: يبقى معه صدره وما استودعه فيه من آيات وتراتيل تشفيه وتداويه وتبارك له في عمره. فماذا يبقى لمن لم يحفظه بعد! وماذا ينتظر حتى يحفظه!؟

وأما أولئك الذين يتحججون (الفهم أولى من الحفظ) فأقول هناك قوانين رياضية لا تفهمها إلا إن كررتها وحفظتها فمع الحفظ تفهمها وكذلك القرآن.

وأتذكر تلك التي نشرت تدوينة على الفيسبوك تذكر فيها بأنها عزمت على حفظ القرآن فقالت لها صديقتها: ولماذا تحفظينه؟ التدبر أهم من الحفظ. تقول: والآن مرت السنون فلا أنا بالتي حفظته ولا أنا بالتي تدبرته.

فيا صديقي لا يبقى رفيقٌ معك في الشدة إلا هو، وهو الربيع وهو الغيث فاحفظه تأنس وتسعد به. اسأل الله تعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا وأن ييسر لي ولك حفظه في عفو وعافية وسلام وأمان.

...

من معين اليقين اغترف، واكتب هذه التأملات فيه، فقد قال خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ «تَعَلَّمُوا الْيَقِينَ كَمَا تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ حَتَّى تَعْرِفُوهُ فَإِنِّي أَتَعَلَّمُهُ»

اليقين أن ترى المستقبل فألًا، تحقّقه بالعمل الصادق في الواقع، وتصبر على هذا العمل وهذا الواقع بكل ما وقع لك فيه من أقدار ونتائج حتى حصولك على ثمرته مستقبلًا قريبًا أم بعيدًا عاجلًا أم آجلًا في الحياتين الدنيوية والآخروية.

لو كان هناك طالب يدرس وليس متيقنا من نيله الشهادة، هو في شك من المستقبل وهذا الوعد، هذا الشك يزلزل أوتاد الصبر التي في قلبه فتنفك عنه فيجزع ويسخط ثم يترك الدراسة ولا يكملها.

وهناك آخر جزم وأيقن بحصوله بعد التعب والعمل على الشهادة بمشيئة الله تعالى فهو يرى هذا الوعد فألًا، ويصدّقه بالعمل واقعًا والدراسة جدًا واجتهادًا ويثبته صبرًا.

المؤمن يوقن بوقوع الوعد الحسن بحسن ظن وفأل في ربه مع إقرانه بالعمل والاجتهاد والإخلاص والصبر على اليقين والصبر على العمل.

وأما المنافق يظن بالله الظن السوء المتشائم، وحتى إن تفاءل فمجرد أماني مغرورة لا يُتبعها عملًا بل هوى متبعًا.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِما بَعْدَ الْموْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَواهَا، وتمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأمانيّ» حديث صحيح

وقد سمّى الله الموت يقينًا؛ لأن المؤمن أيقن بوقوعه، قام وصدّق هذا بالعمل «وعمل لما بعد الموت»، فلو كان عنده شك في البعث لما عمل ولما صبر.

واليقين مقرونٌ بالصبر لا ينفكان أبدًا فوجه اليقين مولٍ إلى المستقبل تفاؤلا، والصبر على الواقع وتصديقه بالعمل، وحتى اليقين بحاجة إلى صبر، وإذا رأيت الشاك في وعود الله ونصره لأوليائه فاعلم أنه لم يصبر على اليقين، ثم لم يصبر على العمل.

وقد قال لقمان الحكيم لابنه "الْإِيمَانُ سَبْعُ حَقَائِقَ , وَلِكُلِّ حَقِيقَةٍ مِنْهَا حَقِيقَةٌ... فَحَقِيقَةُ الْيَقِينِ الصَّبْرُ"{وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون}.

ومن أيقن بالدين بمعناه الأول: الإيمان من كتب ورسل وما فيها وما معهم من وعود بنصر الله لعباده الصالحين وهو معهم ولن يتركهم وحفظه لهم، وأيقن بالدين بمعناه الثاني: الآخرة. عَلِمَ أن هذا الدين بوعديه الدنيوي والآخروي واقع لا محالة {وإن الدين لواقع} هذا إن هو صدّقه بالعمل والصبر والإخلاص {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}.

واليقين درجات كدرجات الإيمان في الضعف والقوة، وإنما تختلف مراتب الناس في اليقين باختلاف معرفتهم بالله عزوجل فكلما اشتدت قوة معرفة العبد بربه سبحانه وتعالى كان له من كمال اليقين والفتح له فيه العجب العجيب الذي لا

يُذكر، وأما من نقص إيمانه وتوكله ومعرفته بربه وكلامه وأسمائه الحسنى وصفاته العلى يضعف يقينه بربه.

«عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، قَالَ: " قِيلَ لِعِيسَى: بِأَيِّ شَيْءٍ تَمْشِي عَلَى الْمَاءِ؟ قَالَ: «بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ» , قَالُوا: فَإِنْ آمَنَّا كَمَا آمَنْت وَأَيْقَنَّا كَمَا أَيْقَنْتَ , قَالَ: «فَامْشُوا إِذًا» , قَالَ: فَمَشُوا مَعَهُ فَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ فَغَرِقُوا , قَالَ لَهُمْ عِيسَى: «مَا لَكُمْ؟» , قَالُوا: خِفْنَا الْمَوْجَ , قَالَ: «أَلَا خِفْتُمْ رَبَّ الْمَوْجِ»

وكلما قويت تصوّرات الرب تعالى في عقل الإنسان، وزادت مراقبته لربه واستشعر في كل لحظة أنه معه ويراقبه زاد هذا من يقينه به. وإذا نظر إلى ربه إجلالا، وشَزَرَ الناس أصفارا، وعظّم الآخرة وحقّر الدنيا رأيته من اليقين يتفجّر ضاحكا والدنيا اغتالته بُكاءً، فانظر إلى عجيب أحوال القوم واغترف من حالهم، فإن في النظرةِ عبرة لمن لا يعتبر.

إن الكافر إذا خسر تجارةً أو مات عزيزه في حربٍ؛ تجده يتحسر ويقول لو كان عندي ما مات!

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا

مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}

وأما المؤمن فلا يخسر شيئًا ولا يضيع له حق في هذه الدنيا، أتدري لماذا؟

لأن مدخله بالله ومخرجه من هذا الأمر لله {وقل ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق} قال بعض أهل العلم:

المدخل الصدق: أن تدخل في أي أمر كان بالله؛ بأن تكون نيتك من الأصل لله تعالى.

والمخرج الصدق: أن تخرج منه لأجل الله تعالى. فأنت به إليه.

"ومن أشرقت بدايته أشرقت نهايته" فمن أشرقت نيته وصلحت أعماله من البداية، حتى إذا خرج منها خرج مشرقًا لأنها من الله وإليه.

وقالوا (من علامات النُجْحِ في النهايات، النجح في البدايات) فمن ترك الناس والأشياء لله وبالله، لا بد وأن ينجح في النهاية فيعوّضه الله أضعاف ما فقد.

وانظر كيف يعالج القرآن هذه الخسارات للمؤمنين: {قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنين}؟ ماذا تترقبون من خسارة لنا؟ وأي فشل وخيبة مسعى تنتظر المؤمنين!؟ هل تنتظرون

إلا النصر لنا أو الموت سعداء! فهي إما سعادة الدنيا لمن بقي وإما سعادة الآخرة لمن ذهب!! {فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر} فالمؤمن في انتظار فرج الدنيا وانتظار فرحة الآخرة {من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم}

وانظر إلى ما عزّا به مُصاب المهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}

فجعل تركهم للديار والأموال علامة صدقهم، وقد أفلح من صدق {والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون. لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين. ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون} فانظر إلى أولئك الصادقين كيف وصفهم بالمتقين والمحسنين! فأين الضياع والخسارات إن كانت في سبيل الله!؟ قل لي أين هي الخسارة فنحن لا نراها ولا نحس بها {والله ولي المؤمنين} {والله ولي المتقين}.

...

لا تحتاج لئن تعرف أعداءك من هم، وماذا يفعلون؟ وماذا يقولون في غيبتك، ولا تحتاج لتعرف تفاصيل الجُمل، ولا تناجيهم إسرارًا وإجمالًا، ولا تنقصك أهم العناوين.

كل الذي تحتاج إليه أن تنشغل بربك ثم بشغلك الذي أنت فيه واترك تفاصيلها على الله فإنك لا تعلم أعداءك مهما أحصيتهم، ولن يفيدك إلا معرفة ربك فهي التي تكفيك وتنصرك وتُظفرك عليهم.

{والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليًا وكفى بالله نصيرًا}

...

(۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الحديد)

أعلموا بأن القلب الميت الغافل له أمل كبير في أن يحيا كما تحيا الأرض بالنبات، فلا يأس من هداية نفسك ولا قنوط.

واعلموا أن القلب الحي له أمل في التزود والترقي في معارج الولاية ومدارج التقوى حتى يبلغ ذروة الرشد

والصلاح.. فلا يأس من هذه الطريقة وإن طالت، فمن أراد بلغ.

واعلموا بأن الله لا ينسَ عملًا صالحًا لك فلا يزال ينمّيه لك حتى يسوقك وبأقدامك إلى غيره أعظم منه، فاصبر «أسلمتَ على ما سلف لك من خير» والحديث صحيح، أي أن سبب إسلامك أعمالُ خير وبر كنت تعملها في الجاهلية فأحيا الله بها قلبك وقادتك إلى الإسلام، ولا تزال في مقام الإسلام تعمل خيرًا فينمّيه لك ويقودك به إلى مقام الإحسان والتقوى والشهود والمراقبة، فاصبر ولا تقنطنّ يرحمك الله.

واعلموا بأنكم مادمتم في الخير فالمنتهى إلى الزيادة والخير {ومن يقترف حسنةً نزد له فيها حُسنا} قال فيها المفسّرون هو الذي يعمل الحسنة والعمل الصالح فيقوده إلى عمل صالح أفضل منه، فهو في ازدياد واقرأ إن شئت {والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم}, فالتقوى ثمرة كوفئوا بها على طلبهم الهداية ومجاهدتهم إياها حتى نالوا بها كرامة التقوى.

...

"من علامات اعتمادك على العمل، نقصان الرجاء عند وجود الزلل"

أي أن من علامات اعتمادك على عملك الصالح واتكالك واِتكائك عليه وليس توكلك على رحمة الله وفضله هو أنك متى ما قصرت في الطاعة أو زلّت بك القدم؛ رحت تسيء الظن بالرب، ونقص رجاءك وأملك في ربك، وزاد قنوطك وإحباطك؛ وما هذا إلا دليل على اعتماد المرء على نفسه وعمله وليس على ربه سبحانه وتعالى.

فقد قال سيد النبيين عليه الصلاة والسلام في الصحيح «سَدِّدُوا وقارِبُوا، وأَبْشِرُوا، فإنَّه لَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ أحَدًا عَمَلُهُ قالوا: ولا أنْتَ؟ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: ولا أنا، إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ منه برَحْمَةٍ، واعْلَمُوا أنَّ أحَبَّ العَمَلِ إلى اللهِ أدْوَمُهُ وإنْ قَلَّ».

وسوء الظن بالله عند وجود الزلل والخطأ كالظن بأن الله لن يغفر لك ولن يقبلك ثانيةً وأنه يمقتك لخلل وخطأ أو تظن بأنه يعذبك ويعاقبك على نقص في مقدار عمل صالح اعتدته، ما هو إلا من صفات المنافقين {وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بما نقول}

فالمنافقين والكافرين هم أسرع الناس في إساءة الظن بربهم وذلك باستعجال عقوبته وعذابه على نقص يعملونه أو سيئة يجترحونها {ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة} {ويستعجلونك

بالعذاب} يستعجل هؤلاء الكفار العذاب بدل انتظار الرحمة والمغفرة والفضل والرزق.

أما المؤمن فهو متوكل على الله لا على عمله الصالح يظن بربه الظن الحسن بأنه يقبل القليل ويضاعفه {ويعفو عن كثير}. وانظر إلى حسن ظن سليمان عليه السلام بعد أن استغفر ربه من ذنبه فورًا دعا بالصالحات والحسنات! { قال ربي اغفرلي وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي} فلم يمنعه التقصير من الاستغفار ورجاء رحمة الله ومن ثم سؤال الله الملك والمال! فلم يقل: أنا مقصّر كيف استغفر ثم كيف اتجرأ وأدعو بالملك! وما فعله عليه السلام هو من تمام الأدب مع الله تبارك وتعالى فدل على ظنّه العالي في الله، وكلما زاد العبد في مراتب العبودية قوي يقينه وزاد رجاؤه بربه تعالى.

{ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا}

لا يشغلك انتقادهم وكلامهم بالحزن والهم حتى تنسى أن الله ولي الصالحين وأنه يدافع عن الذين آمنوا، وأنه من عادى لي وليا فقد اذنته بالحرب، وأنه نعم المولى والنصير إذا انعدم النصير {إلا تنصروه فقد نصره الله}.

وقد قيل "من يتق الله يكن الله معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل."

...

غيّر نظرتك ونظّارتك!

إن لم تنجز هنا كل تلك الأوراق،

ولم تأخذ حقوقك كاملةً،

فاصبر فإن هناك حياة ثانية أخرى، تُستردُّ فيها الحقوق، وتُنجز الأمور التي لم يتيسر لك إنجازها في هذه الدار.

الحياة مستمرة لا تتوقف. ولا يُظن بأن الموت هو نهاية كل شيء إلا كافر، أما المؤمن فيرى أن له حياة ثانية يحياها، معه حياة أخرى مملوءة بالخير والسعادة والبهاء والحُسن والجمال، وكل ما لم يحصل له هنا، حصل له هناك: فعلَمَ الإشفاق؟ ولِمَ الجزع والتسخط؟ نظرة بخيالك تُطل على شرفات الآخرة وتتقلب في أنهار الجنة تُذهب عنك أحزانك، وتوسّع صدرك بعد ضيق، وأما هذا الهم الذي في صدرك فإن الله مُذهبه عنك {وإنّا على ذهاب به لقادرون}.

فلا تحزن على مافاتك من الدنيا، وما ذهب منها، ففي الحياة الآخرة العَوض الكبير والمطمع الجزيل والثواب العظيم

"يؤتى المؤمن عند الموت فيقال له: لا تخف مما أنت قادم عليه فيذهب خوفه، ولا تحزن على الدنيا ولا على أهلها وأبشر بالجنة فيذهب خوفه، ولا تحزن على الدنيا فيموت وقد أقر الله عينه"

ولا تفهم من حديثنا هذا التكاسل عن العمل في الدنيا والاتكال والتسويف، معاذ الله أن نقول بهذا، فتوكل على الله واعمل، ولكن لا تنسَ أن تغيّر نظرتك قليلًا، وتوسّع عدستك كثيرًا، فهذه الدنيا صحراء أمام ما يلقاه المؤمن عند الله في الآخرة، ولهذا ابتهج! ولأجل هذا سُرّ واستبشر، ولأجله تُب واعمل.

وعن عبد الله بن عمرو قال: الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن، وإنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه كمثل رجل كان في سجن فأخرج منه، فجعل يتقلب في الأرض ويتفسح فيها."

فلا شيء أعظم من سرور المؤمن بلقاء الله إذا هو مات، لما يرى من الكرامة ولما يجده في روحه من خفة الروح وحريتها. فعن مالك بن مغول أنه قال: بلغني أن أول سرور يدخل على المؤمن الموت، لما يرى من كرامة الله تعالى وثوابه.

فلا تجعلن الدنيا أكبر همك ومبلغ علمك، وسّع نظارتك واجعلها تحتمل أوسع مشهد تراه، ولسوف تبصر جنات وفيافي وأعناب بعد صحاري الدنيا..

فالموت بداية العشّاق إلى بلاد الاشتياق " الموت خير يوصل الحبيب إلى الحبيب" أو كما قال حبّان بن الأسود

...

هذا الإنسان المحدود...

مسكين لا يرى الأقدار

ولا يعلم ما خبيء له في الغد من هدايا ونعم وعطايا ومنح

لا يجد حلًا لما أُشكل عليه غير وجوه معدودة، وخيارات مألوفة، وصناديق مكروسة، وقراطيس مرسومة.

لا يرى بل لم يسمع بل لم يبصر ما وقعته الأقلام بالغيب من أحكام وأقدار في مسألته ومعاناته وماجرياته وأحزانه ونفاثة السواد التي أطلت على جباله العليّة. ما خطر على قلبه قط أن شفاءه في ملعقة عسل وقالوا: "إن لله جنودًا من عسل"، وما طرأ على خَلَده ساعةً أن خروجه من الديون سيكون بائع متجول يأخذه إلى رحلة تجارية تدر عليه الأرباح وتفض عنه زحمة الديون، لا ولم يجيء عليه ولو مرةً أن الدروس

التي استعصى فهمها، صديق من السحاب الأبيض المخبء يطل عليه ليفهمه إياه، وخيرٌ له هذا من ألف معلم ومعلم.

على أن القارئ لكلامي هذا لا يفهم مرادنا منه أننا في تفاؤل مفرط أو وهمٍ مُغرِق، أو شؤم مُعدَم، بل إننا نقول: كأين قدرٍ جميل في ما مضى من أعمارنا، وعاينته المشاهدات، وعايشناه بالدُربة كان هو عينه وذاته ما خطر على قلبنا وكان خارجًا عن حيز فهمنا ولو ألّفنا له ألف سبب وقصة، ما ألفيناه إلا ماءً من السماء وقدرًا من الغيب قدّره عالم الغيب والشهادة، وهذا السر في أن أعجز فهمنا لما حدث، ومن نجى فيما وقع.

والله أحيانًا يقدّر هذه الأقدار المدهشة ليخرجنا من غرور علمنا البشري، وليقول لنا: أنا موجود، ولا وجه إلا وجهي ولا باقي إلا أنا.

ومن الفناء أن تعلم فناء الأسباب والمدركات البشرية، وبقاء المسبب الواحد الديان لا إله إلا هو.

...

{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}

وبعد أن أعلمك بأنه هو وحده الضار النافع سبحانه وتعالى، راح يخبرك زيادة باليقين على اليقين ودفعًا لما قد يطرأ على ذهنك من شغل بالأغيار عن مقدّر الأقدار وقاهر القوى الواحد القهّار، وطردًا لما قد يجول في خطراتك وخيالاتك من توهم ضر أحد من الخلق بك أو نفعهم لك، وتسكينًا لخوفك وربطًا على حزنك راح يخبرك بهذه الحقيقة لتشرق نفسك بها وتأوي ارتياحًا إليها وتقوى بعد وهن: أنه هو القاهر فوق عباده.

هو القاهر عليهم بتدبيره وتصريفه، وإن حدث ضر

أو نفع من جانب الخلق فإنما ذلك بتقديره هو سبحانه وتعالى وقضائه وليس لحرية اختيارهم هم. فهو القاهر فوق الخلائق، وهو بقهره عليهم يكشف الضر والنفع. وليسوا هم؛ لتصفو حقيقة التوحيد فيك ويقوى نوره المكين على قلبك.

ولما سئل أبو عثمان المغربي: ما الخلق؟ أجاب: "قوالب وأشباح تجري عليهم أحكام القدرة."

فلما علم من تقلّب وساوس نفسك بين الحركات والذوات في ضرها ونفعها، راح يذكّرك زيادةً على الأولى بأنه له قهر وغلبة لا يعلم كيف هي إلا هو. وما الخلق والعباد منشئون أفعالًا من ذواتهم بل هم منفّذون لأوامر القاهر فيهم من ضر أو نفع. فالكَاشفُ للضر هو الله تعالى والنافع بالخير هو الله وحده سبحانه وتعالى.

"وقال الواسطي: لما كانت الأرواح والأجساد قامتا بالله وظهرتا به لا بذواتها كذلك قامت الخطوات والحركات بالله لا بذواتها". ...

عندما تضطرب نفسك ولا تعلم سر القدر وحكمته، فاذهب في مكان هادئ وفكر أو اكتب ما الحكمة من هذا القدر؟

وعدّد ذلك على أصابعك أو في أوراقك. وكرر فعل هذا كلما أزعجك القدر وآلامك ثم ترى بدهشة كيف أصبحت أكثر رضا وقبول به واقتناعًا بما جرى لك. وإن تكاسلت في التدوين بالقلم والهاتف ففكر ولو في حكمة او حكمتين.

وفعل هذا وتكراره يجعلك تعلم عن يقين معنى اسم الله الحكيم والعليم. فالحكيم يحب الحكماء الباحثين عن الحكمة والسر في أقداره، أوليس هذا درب موسى عليه السلام في

قصته مع الخضر عليه السلام حيث كان يسأل عن الحكمة في كل قدر ويبحث عن جواب، ولابد لمن سأل وبحث أن يجد الجواب.

كما أن فعل هذا يحسّن ظنك برب العالمين ويترك في نفسك عزاءً ومواساة كبيرة تخرج منها قنوعًا راضيًا مشرق النفس وتنام هاني البال قد أيقنت نفسك أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

وقد عددت في قدر من الأقدار الحكم والفوائد فوجدت فيها ٢٠ حكمة لله عليّ فيها ونعمة. فحمدت الله واسترحت.

...

اتأمل ما يجري في حياتي من قصة لأجد بأن خير ما تفعله هو أن ترحل وتطير بعيدًا بعيدًا لتحلّق عاليًا حرًّا طليقًا من أغلال رق الأغيار، إلى سماءِ ربِّ الأبرار.

ويظهر لي بأننا نمر بكل التجارب السيئة مع الخلق، لنقرر -عن قناعة تامةً في قناعتها وحرية اختيار -الرحيل إلى الحق. "فمتى ما أوحشك من الخلق، فتح لك باب الأنس به"

وأذاقك مرارة الأشباح لتترفع عنها ثم تكن سلوتك في الأرواح.

ولو لم تخض تلك التجارب المريرة لم تكن لتقنع بالصلاة وتطمئن فيها وتخشع. ولو كنت في حلاوة التجربة دومًا لم تكن لتُهرول إلى الله.

فلا تتحسر على مافاتك وضيعت من وقت، فالحسرة زيادة عليك في تضييع الوقت، بل أسرع إليه وحث الخطى والسير جادًا إليه على الجادّة في شوق وحنين. ...

يقولون: لا تنتظر المنقذ.

أوليس الله هو المُفرّج عن كل مكروب؟

والله تعالى يقول: {فانتظر إنهم منتظرون}، {كذلك حقًا علينا نُنجِ المؤمنين}

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «واعلمْ أنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ» وهل الصبر إلا انتظار الفرج؟

ولكن هم درجات في إيمانهم ويقينهم بربهم، فهش اليقين والتوكل يثق في نفسه والأسباب وينسى رب الأرباب. وقوي اليقين بالله ينسى نفسه وحوله وقوته ويعتمد ويتوكل على الحي الذي لا يموت، ويوقن بأن لله تدبيرًا لا يخطر على بال

أحد {ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب}. لكنه الإيمان لما ضعف في القلوب واليقين لما نُزع، والآخرة لما غابت مشاهدتها، وغشتهم الدنيا أنستهم التوكل على الله حق توكله وانتظار فرجه، والقرآن كله أدلة على انتظار الفرج والنصر من الله تعالى، بل حتى الكافر يأتي فرجه حين اضطراره من ربه على عناده وعتوه، فتأمل ولا تُتبِع النظر.

أقسم لك بالليل الذي اشتدت ظلماؤه عليك حتى سكن وثبت، ورأيت عقارب الزمان توقفت عليه، وظننت أن لا تجتازها إلى فجرٍ مطلق.

أقسم لك بالليل إذا سكن، حتى ما عدت ترى دليلًا ولا برهانًا ولا إشارة على انتقاله إلى نهارٍ جديد، وجمال ضحًى قريب؛ لأن كل شيء، كل شيء ساكن يقول لك: لا توجد حركة في الكون الذي أحاط بك، والحياة تكلمك بأنها سكنت.

{والليل إذا سجى} سجى: سكن واشتد ظلامه.

أقسم لك بالليل إذا سجى؛ أن ربك ما خلّاك منذ أن اختارك واصطفاك واجتباك، "وما أبغضك منذ أحبك" {ما ودعك ربك وما قلى}

ودع: ترك

قلى: أبغض

واصطنعتك لنفسي

قطعت عنك العلائق، لتكون بي عالق، ولوجهي خالصًا وموحدًا، ولتكون لي، لا حظ لأحد فيك، ولا رجاء وخوف لك عند أحد،

اصطنعتك لنفسي؛ لأني في منتهى الحب لك، وغاية الغيرة عليك «إن الله يغار»، والذي يغار يتملكك بالكامل لا يريد أحدًا معك سواك،

وحدك أنت تأتي إليه دون أحد من أهلك وأحبابك {قال لأهله امكثوا}

ليخلو بك وحدك،

على نار نوره

لينادیك بصوت الحنين و كأبلغ ما يكونُ الاشتياق إليك بعد الصنعة على عينيه {فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين}

أخيرًا! أتيت!

أخيرًا التقينا!

بوركت! وبورك مجيئك!

وبورك الموعد والوقت الذي قدّرته لك لتأتيني فيه {ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي}

———

هو اللهُ القريب

نصره قريب {ألا إن نصر الله قريب}،

وفرجه قريب {أليس الصبح بقريب}،

وفتحه قريب {فجعل من دون ذلك فتحًا قريبا}

ووعده قريب {إن ما توعدون لآت} {أتى أمر الله فلا تستعجلوه}

فدع الهم والاغتمام، وخذ بالفأل فإنه مسلك الأنبياء والصالحين من قبلك واستعن بالله ولا تعجز، وأمام كل معضلة اجعل سلاحك حسن الظن بالله والصبر عليها والفأل مهما كان وعليك في كل مصيبة تلمّ بك بالفأل فإن ذلك أدعى لانكشافها "واستعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله فإن ذلك أقرب إلى الفرج"

قد تطلب من الله ستة فينصرك باثنين!

لأن النصر والفوز بالمعية لا بالكمية {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين}

ولأن حشد القوى سلاح الضعفاء.

والله نصر اثنين في الغار بأوهن البيوت وأضعف الدواب: العنكبوت، والحمام {وما يعلم جنود ربك إلا هو} ونصر المؤمنين في بدر بخمسة آلاف من الملائكة كانت كافية فلا يحتاج إلى ١٠٠ ألف ملك، لا أبدًا، فأمر هؤلاء أهون على الله من أن يحشد لهم تلك الأعداد الكبيرة فهم أهون وأحقر عليه من ذلك، والله أكبر وأعلى وأعظم منهم.

ليعلمك الله ويلقنك درسًا بأن ليس النصر بالحشد ولو كان هذا لانتصر الخلق على الخالق؛ ولكن النصر بتدبيره واللهم إن في تدبيرك ما يغني عن الحيل. وتعلمك أسباب النصر الضعيفة بعد ان استنفدت كل الحيل واستفرغت كل قواك ونفدت كل مؤونة من يدك ويأست من نفسك واليأس مما عما في أيدي الناس؛ ثم تردد من قلب: لا حول ولا قوة إلا بالله. فيأتيك النصر بسبب ضعيف وقد لا تعرف السبب! فلا يوجد سبب ولكنك الآن أمام البرهان الأقوى المسبّب: الله.

فقد زالت أسباب وحجب النصر وأسبابها بالكامل لم تنصر بنفسك ولا بالذين معك، كيف حدث هذا!؟

والآن لا يبقى أمام عقلك الذي زالت الأسباب عنه غير المسبب وهو البرهان الأقوى على وجوده تعالى وتبارك وتعاظم وعز وجل وله الكبرياء في السماوات والأرض

نعم الله موجود

اللهم زدنا يقينًا ونصرًا فلا حول لنا ولا قوة إلا بك.

بعض الأرزاق تنتظر نضجك...

سأحدثك عن الوقت،

لن أُحدّثك عن قيمته، فأنت تعرفه.

بل سأحدثك عن قانونه العلوي: لكل قدر أجل ولكل أجل كتاب ولكل أجل مستقر ولكل أجل ساعة لا يستقدم عنها أحد ولا يستأخر.

الزمان يتعاضد بالمكان ويتعاقد معه فيزيائيًا، فلكل مرجع قصوري ثابت أو متحرك أبعاد منها: بعد الزمان وبعد المكان.

وأريدك أن تعلم أن لكل قدر سيء حد زماني وساعة إذا وصل إليها لا يستقدمها ولا يستطيع تخطيها {قد جعل الله لكل شيء قدَرا} لكل شيء حد وقدر يقف عنده فلا يعدو قدره.

لاحظ ابن باز علامات الهم والتعب في وجه عائض القرني فقال له ابن باز: اصبر فإن لكل شيء حدا. المرض حده الشفاء والفقر حده الغنى والهم حده الفرج.

وأريدك أن تعلم أنه كما على كل قطرة مطر مَلك موكّل بها وبالمكان المُقدّر لها أن تسقط فيه والزمان وبالملي ثانية.

فإنه لكل قدر جميل ولكل فرحة زمان لا تتأخر عنه ساعةً ولا نصف ثانية.

ولكن تتأخر الأقدار والأرزاق لأنها تريدك أن تنضج!

{فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما}

الله يريدك أن تبلغ عمرًا معينًا ويومًا معينًا في ساعة معينة لُيخرج لك كنزك أيها اليتيم المسكين. وقوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا} كانت في التوراة {يا أيها المساكين}!

فنحن المساكين أتينا بكفيل كفل أرزاقنا وهو عليها كفيل وكيل. وهو حكيم في تدبير الخزائن لو بسط الرزق لطفل فالله يعلم أنه سيضعها في الألعاب واللهو فيمسكها عنه حتى (أداة تعيين نهاية الزمان) يبلغ أشده.

{وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}

ليختبر الأولياء الحكماء المتكفلين باليتامى المساكين بأنواع البلاءات حتى بلوغ زمان معين وهو زمان الرشد (النكاح) فإن وجدتم رشدًا وبلوغًا فادفعوا الكنز إليهم.

وتلاحظ أن الآيتين متشابهتان!

فكلهم أيتام (وكلنا مساكين)

وكلهم ينتظر القدر الحسن بلوغهم ورشدهم

ثم تدفع لهم الأموال والأرزاق

معاني الرحمة

الرحمة هي المحبة {ذكر رحمة ربك عبده زكريا} أي محبة ربك. ونرى ذلك لأن الله تعالى لا يرحم رحمةً خاصة إلا من سبقت به عناية ومحبة خاصة{يختص برحمته من يشاء}.

والرحمة هي القرآن {هدى ورحمة للمؤمنين}

والرحمة هي المطر {فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها}

والرحمة في العصمة من الزيغ، وعند الوقوع في الزيغ؛ الرحمة الإلهية تأتي لتخرج الإنسان من ظلمة الشبهة والشهوة إلى نور الحق المبين {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة} سألوا الله تعالى اثنان: سألوه الثبات على ما منّ عليهم به من هداية، ثم سألوه رحمة من لدنه خاصة إذا وقعوا في الزيغ ولو لثانية تنجيهم من محل الغفلة وتردهم إلى التبصرة والذكرى {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون} وهذه العصمة هي رحمة لا تكون إلا لعباده المخلصين الذين كانوا معه في الرخاء طائعين مجتنبين النهي؛ فإذا وقعت شدة الفتنة والشهوة والشبهة عصمهم منها بما قدموه من أعمال وبر ومجاهدة للنفس في الرخاء {ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين} أي كان من عبادنا المخلصين؛ فبها رُحم وبالرحمة عُصِم {وقهم السيئات ومن تقِ السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم} {قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين}. وفي الدعاء: اللهم ارحمني بترك المعاصي ما أبقيتني أبدًا. فلما علم أن الصرف عن المعصية لا ينال بقوة ولا ذكاء ولا فطنة ورياسة وإنما برحمة؛ سألها الله تعالى.

... وقفات مع الدعاء النبوي:

"اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها أمري ، وتلم بها شعثي ، وتصلح بها غائبي ، وترفع بها شاهدي ، وتزكي بها عملي ، وتلهمني بها رشدي ، وترد بها ألفتي ، وتعصمني بها من كل سوء ،" (حديث حسن)

ومن الرحمة أن يجمع الله ما شعث من أمرك وتفرّق وضاع وفات وهو القادر على ذلك، وأن يقضي على شتات نفسك ويهديك لأقوم السبيل الواحد الذي ترتاح فيه فيغنيك به عن كثرةِ السُبل وأنواع المشارب والمطاعم؛ فتغنى به روحك وتفنى فيه نفسك وتتفانى فيه أبد عمرك وتقر به عينك ويثلج به صدرك ويلتئم جرحك وتتوحد نفسك ويجمع لك به سعادات الدنيا والآخرة.

ورحمة ينجيك بها من كل فتنة فيما يُفتن بها الناس، والعلم الشرعي رحمة لأنه قد لا ينجو العبّاد من الفتن ولكن العلماء ينجون من الفتن بإذن الله.

ورحمة من الله يوصلك بها إلى التزكية {ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا ولكن الله يزكي من يشاء} توصلك إلى كمال التقوى والإحسان وأعلى مراتب الإيمان.

ترفع بها شاهدي: أي رحمة تزكو بها أعمال الظاهر والجوارح.

وتصلح بها غائبي: يصلح بهذه الرحمة باطنك من دقائق الخطرات ويطرد بها وساوس الشيطان وتثبيطه وتحزينه {ويُذهب عنكم رجز الشيطان}، وتجبر بها كسور النفس، وأهطل المطر يوم بدر رحمةً بهم ليذهب عنهم تخويف الشيطان ووساوسه، لتنشرح صدورهم ويكونون أقوى بهذه الرحمة على النصر والمقاتلة.

وترد بها أُلفتي: تُرجع لي ما ألفته من خير وما اعتدت عليه من صحة وأمان وسلام وكل ما أحبته نفسي فذهب عني

،

ومن رحم المعاناة رحمات مُنزلات فالمصائب أيضًا رحمات من الله وبركات، وهو كلام معلوم، وخبره معروف.

لإرسال الملاحظات

shoroogalmehmadi@gmail.com

أين تجد مقالاتنا؟

ننشر مقالاتنا باستمرار على قناة واتس آب: مع المحبرة (مقالات وفوائد)

متابعة قناة مع المحبرة (مقالات وفوائد) على واتساب: https://whatsapp.com/channel/0029Vb6mYujKmCPUKLgBbW23